الفصل السادس

العنف فى كمبوديا
«بول بوت» و«الخمير الحمر»

مات «بول بوت» زعيم الخمير الحمر السابق، الذى يحمله الكثيرون المسئولية عن موت أكثر من مليون شخص إبان فترة حكمه الدموى لكمبوديا فى السبعينيات. ووسط مطالب حكومة كمبوديا التى دانت له لعدة سنوات بتشريح جثته، والتأكد من أن الجثة المتوافرة هى للزعيم الأسطورى بالفعل، وليست لسواه، طالبت واشنطن بمحاكمة زعماء الخمير الحمر الآخرين؛ لإزالة آخر بصمات القوى العالمية التى فعلت فعلها فى الحياة العامة فى فيتنام وكمبوديا، وإزاحة الستار عن عهد أميركى جديد يتماشى مع متطلبات نظام هيمنة الدولة الواحدة على العالم.

لكن هل مات بول بوت حقًّا، وهل انتهت المفاهيم التى خلفت كل هذا الكم من الجماجم؟؟

* * كانت محطة إذاعية سرية، يسيطر عليها أنصار قائد الخمير الحمر العسكرى «تاموك»، الذى أقصى بول بوت عن زعامة الحركة الثورية الراديكالية فى يونية ١٩٩٧، أول من أعلن نبأ وفاة زعيمهم السابق. وورد الإعلان فى الساعة العاشرة والربع مساء ١٥ إبريل ١٩٩٨، واقتصر على بيان وفاة الرجل البالغ من العمر ٧٣ عامًا، ولم تورد الإذاعة تفاصيل أخرى، وتبع ذلك أن سمح الخمير الحمر لمجموعة صغيرة من الصحافيين بتصوير ما قالوا إنه جثة بول

بوت فى منزل خشبى بسيط فى أقصى شمال كمبوديا على مقربة من حدود تايلاند، وهو المكان الذى لجأ إليه بوت، قبل عدة أسابيع بعدما فعل المرض فيه الكثير، وحوّله إلى مسن عاجز عن الحركة. إلا أن سبب الوفاة لم يكن له علاقة بالمرض طبقًا للمعلومات الأولية، وإنما لذبحة قلبية مفاجئة، أو من فعل أحد، كما قال أحد المقربين من الزعيم الذى أقفلت كل الأبواب فى وجهه فى آخر سنتين من عمره. وأظهرت لقطات تلفزيونية، أذيعت فى اليوم التالى لإعلان الوفاة جثة رجل مسن يرقد فى فراش، مرتديًا سروالاً وقميصًا، وقد غطى جزء منها بأغطية الفراش.

وكان الخمير الحمر قد زحفوا على «بنوم بنه» فى ١٧ إبريل عام ١٩٧٥، بعدما تغلبوا على حكومة كانت تدعمها الولايات المتحدة. وتواردت الروايات والقصص عن موت أكثر من مليون كمبودى بتأثير الأمراض والجوع والسخرة أو الإعدام، بوصفهم أعداء لثورة الخمير الحمر الماوية، قبل أن تسقط حكومتهم على أيدى الجيش الفيتنامى، الذى غزا كمبوديا فى أوائل عام ١٩٧٩. واختار بوت، أو أختير له، أن يموت فى منطقة تسيطر عليها الميليشيات على حدود كمبوديا الشمالية مع تايلاند، وسمح لمجموعة صغيرة من الصحافيين، عبروا الحدود إلى كمبوديا بالتقاط صور للجثة الخميس ٢٣ إبريل ١٩٩٨، ولكن كثيرًا من الكمبوديين ما زالوا متشككين فى رحيل الزعيم السابق، وقال «خيو كاناريث» وزير الدولة للإعلام: «نريد الجثة لتشريحها أو يمكنهم إعطاؤها لفريق طبى محايد لفحصها».

إلا أن بانكوك قطعت الطريق على المتشككين، عندما أكد الجيش التايلاندى نبأ الوفاة، وقال الكولونيل «روانجبورن راجانارود» نائب رئيس أركان القوة التايلاندية على الحدود الشمالية الشرقية مع كمبوديا: إن فريقًا عسكريًّا لايضم طبيبًا تعرف على جثمان بول بوت فى القرية التى توفى بها.

وأرسلت تايلاند فريقًا طبيًّا آخر فى الصباح التالى لفحص جثة بوت، الذى

لم يكن يعنى كمبوديا وحدها، وكان الهدف من ذلك هو التأكد من شخصيته. وعادت بانكوك لتعلن تأكدها من وفاة بوت.

وقال «روانجبورن»: «فحص الفريق جثته ولا توجد فيها آثار جراح ولا أى شىء يشير إلى تعرضه إلى هجوم، ولكن ليست لدينا الإمكانيات الطبية، التى تتيح لنا معرفة إذا ما كان قد مات بهبوط فى القلب أم لا». وكان فحص العسكريين التايلانديين للجثمان، أول فحص مستقل للجثة.

وقال ملك كمبوديا «نوردوم سيهانوك»: «إن وفاة بول بوت ستجىء بالسلام إلى بلاده» وأضاف؛ «الآن ستتمتع بلادنا بالسلام». ويقيم سيهانوك فى قصر ببلدة «سييم ريب» الشمالية، واجتمع مع السفراء المعتمدين فى بلاده لاطلاعهم على الخبر، وتجاهلت معظم وسائل الإعلام الكمبودية أنباء وفاة بول بوت، التى حظيت بتغطية إعلامية واسعة فى جميع أنحاء العالم. ولم يذع التلفزيون الصور التى التقطها الصحافيون لجثته، ونشرت صحيفة واحدة من الصحف التى تصدر باللغة الكمبودية، وهى «راسماى كمبوتشيا»، تقارير وكالات الأنباء عن وفاته فى صفحتها الأولى، تحت عنوان: «البعض لايصدق نبأ وفاة بول بوت»، ونقلت الصحيفة عن متحدث رسمى قوله: إن وفاة بول بوت لم تتأكد بعد.

وفى واشنطن تعهد الرئيس بيل كلينتون بتقديم كبار المسئولين الآخرين فى نظام الخمير الحمر السابق إلى العدالة. وقال كلينتون فى بيان أصدره البيت الأبيض؛ للدلالة على رغبة أميركا فى الثأر لموالين لها، أطاح بهم بوت من قبل: «على الرغم من أن فرصة محاسبة بول بوت عن جرائمه الوحشية لم تعد قائمة فيما يبدو.. فإن كبار مسئولى الخمير الحمر، الذين تولوا القيادة بين عامى ١٩٧٥ و١٩٧٩ ما يزالون طلقاء، وهم يشاركونه المسئولية عن انتهاكات حقوق الإنسان التى ارتكبت فى تلك الفترة».

وقال الرئيس كلينتون متبعًا خط من سبقه فى السير على المنهج الأمريكى، فى تصفية الحسابات السياسية التقليدية مع الخصوم: «يجب أن لا نسمح لوفاة أسوأ زعماء الخمير الحمر سمعة بأن تثنينا عن أداء مهمة على القدر نفسه من الأهمية،

وهى تقديم هؤلاء المسئولين الآخرين إلى العدالة». وقبل موت زعيم الخمير الحمر بأسبوع واحد، قالت الولايات المتحدة: إنها تتشاور مع دول أخرى منها تايلاند والصين؛ بشأن خطط طارئة لمحاكمة بول بوت.

لقد مات بول بوت، وهو يرتدى قميصًا مرقعًا فى أكثر من جانب فيه، ومن دون أرصدة فى البنوك، بل تاريخ حافل بالفساد الأخلاقى، فى حين يقال عنه: إنه مؤسس نظام «حقول القتل»، وهو الوصف الذى أطلقته الدوائر الأميركية على فترة حكمه، الذى ألحق دمارًا واسعًا بكمبوديا هز العالم. أما بول بوت نفسه، فظل طيلة ما يزيد عن ثلاثة عقود أشبه بالشبح.. قلما يظهر، ولكن الجميع كان يخافه. ومع أن بعض القلة القليلة التى التقت به، تصفه بأنه مهذب عذب اللسان.. فإنه حوَّل كمبوديا خلال ثلاث سنوات وثمانية أشهر أمضاها فى السلطة إلى جحيم من الموت والحرمان، وترك فى أذهان كثير ممن بقوا على قيد الحياة جروحًا لا يمحوها الزمن.

وفى النهاية أصبح زعيم الخمير الحمر، وهو فى السبعينيات من العمر، ضحية للخيانة، بعدما أمضى حياته فى خداع أعوانه وأبناء وطنه؛ ففى العام ١٩٩٧ انقلب عليه رجاله بعد صراع على السلطة مع زملائه المسنين. وأخرج بول بوت من الجماعة، وحكم عليه بالبقاء رهن الإقامة الجبرية بالمنزل فى محاكمة أجرتها الخمير فى يوليو ١٩٩٧.

وطال به العمر حتى رأى تعثر الخمير الحمر بعد تحول كثير من أعضائها عنها، ورأى جماعته التى كانت تشيع الرهبة يومًا، وهى محاصرة على قطاع من الأراضى المرتفعة على حدود كمبوديا الشمالية مع تايلاند.

ولد بول بوت فى العشرينيات حاملاً اسم «سالوث سار»، وقاد جيشًا من الفلاحين من الأدغال وحقول الأرز إلى النصر على جمهورية «لون نول» المدعومة من الولايات المتحدة فى عام ١٩٧٥، أو عام «صفر» كما يطلق عليه الخمير الحمر.. وسرعان ما شرع بول بوت وزملاؤه الماركسيون ـ ومعظمهم

أصدقاء من أيام الدراسة فى باريس ـ فى حملة راديكالية لإعادة هيكلة المجتمع. إلا أن أطرافًا نافذة فى الغرب، لم تكتف بمواجهته وردعه وتشويه سمعته وعرقلة برامجه، بل انقسمت فيما بينها فى صراع غير معلن للهيمنة على كمبوديا، مستفيدة من بنوم بنه، التى وجدت أن التعايش مع أميركا أفضل من مواصلة قطيعتها.

وعندما انقشع دخان المعارك، ظهرت وجوه مقاتلى بول بوت، وجوهًا جامدة لا تعرف الابتسام لتخلى العاصمة من أهليها تحت تهديد السلاح، وتحملهم على التوجه إلى الريف والعمل فى مشروعات زراعية ضخمة. أما جنود نظام «لون نول» المهزوم فحشدوا وذبحوا.. ولكن تبين سريعًا أن بول بوت كان يرى أن جميع شرائح المجتمع أعداء لحلمه القومى.

كان كل من له صلة بالعدو اللدود ـ فيتنام ـ وكان الرهبان البوذيون والأقليات العرقية والطبقة المتوسطة كلهم ـ من وجهة نظره ـ خطرًا على نظام الدولة. وتحت لواء القومية والأيديولوجية الشيوعية، حاول بول بوت أن يخلق بين عشية وضحاها اقتصادًا جماعيًـا لا يعتمد على المال.. اقتصادًا قادرًا على إدارة ظهره للعالم، وانتهت التجربة بكارثة؛ إذ تلاشى محصول الأرز، وتعفن أيضًا فى الحقول ما خرج من حبوب إلى حيز الوجود، وقضى الجوع والمرض وعمل السخرة على كثير ممن حالفهم الحظ، ونجوا من فرق الاغتيالات.

وعندما وقع الغزو الفيتنامى في ٢٥ ديسمبر عام ١٩٧٨، وأبعد بول بوت ومن معه عن الحكم، كان أكثر من مليون شخص قد لقوا حتفهم، وامتلأ الريف الكمبودى بالعظام النخرة والقبور الجماعية، وألصقت كل تهم القتل والإبادة بـ «بوت» وجماعته.

وبعد قليل من الإطاحة به، قال بول بوت للصحافيين: «إن عدة آلاف من الكمبوديين ماتوا بسبب بعض الأخطاء، ومن الطبيعى أن يكون لكل نظرية عظيمة ضحاياها.. المهم هو الهدف النبيل» !

* * *